

الفصل الثامن

معالم في طريق الرجولة

تبين من نتائج الدراسة التحليلية التي تضمنتها الفصول المتقدمة ، أهم العوامل والظروف التي تتشكل بها المراهقة في الحالات المختلفة . واستكمالاً للمناقشة ، نغز - فيما يلي - إلى موضوع « المراهقة » من زاوية جديدة ، هي زاوية التغيرات التي تطرأ إبانها على النمو ، وما يترتب على هذه التغيرات - في ذاتها وفي تفاعلها مع البيئة الاجتماعية - من حاجات وصعوبات خاصة .. ونبدأ أولاً بالتغيرات الجسمية وهي أبرز تغيرات النمو في المراهقة ، ثم ندانف منها إلى بعض الاعتبارات الهامة للتطور نحو الرجولة ، حيث نستأنف الرحلة في الطريق الموصل بين الطفولة والرجولة (مرحلة المراهقة) في فصول تالية .

التغيرات الجسمية والفسولوجية

يتميز النمو الجسمي في المراهقة بسرعة المذهلة .. وتقترن هذه السرعة بدمم الانتظام وبدمم التماثل في النمو !
فن حيث السرعة التي ينمو بها الجسم في المراهقة فهي أكبر منها في

أى وقت آخر منذ شهور العمر الأولى، ولذلك تكون التغيرات فى الأبعاد الجسمية واضحة بارزة ، بل هى وثبات أو قفزات فى النمو تفرض نفسها فرضاً على المراهق ، فلا بد له من أن يلاحظها ويهتم بها ، ولا مفر أيضاً من أن يلاحظها الذين حوله ويشمرون بها ! والصعوبة الأساسية التى تترتب على هذه التغيرات السريعة سرعة خيالية ، هى فى محاولة اللحاق بها ومسيرتها ، أى محاولة إعادة تنظيم الحياة النفسية لتساير الأوضاع الجديدة لنمو الجسم . ولا يتأتى ذلك — بطبيعة الحال — دون شىء من الاضطراب والقلق ، الذى يزيد منهما إدراك المراهق لمراقبة المحيطين به ، أثناء محاولاته فى التلاؤم النفسى ! ويختلف الأمر — مع ذلك — باختلاف موقف هؤلاء المحيطين وحسن إدراكهم وتماطفهم مع حاجات المراهق المتطورة .

ويجب أن نذكر أن سرعة النمو الجسمى الكبيرة فى المراهقة ، إنما تأتى عقب فترة مستطيلة من النمو الهادى الرصين الذى تتصف به الطفولة المتأخرة . . . ويمكن لنا أن نتصور إنساناً استتبت أموره واستكان زماناً طويلاً إلى أوضاع منتظمة معلومة ، وإذا بأحوال مفاجئة تطرق بابه فتقطع عليه هدوءه ونظامه اللذين درج عليهما ، وإذا عليه فجأة أن يستبدل بحياته الرتيبة نشاطاً وحركة ومخاطرة ، وأن يفتش عن مستويات جديدة أعلى للأمن والتوافق ! . . . فهذا هو المراهق عندما يفجأ ارتفاع مطرد فى قاعدته ، واتساع لمنكبويه ، واشتداد فى عضلاته ، واستطالة ليديه وقدميه ، واجتراح وتكسر فى صوته . . . إلى الطلائع الأولى للحياة

والشارب ، والشعر الذي حط في مواضع مختلفة من جسمه ، وإلى « بثور الشباب » التي تنتشر على الوجه . . . بله الإفرازات المنوية التي لا عهد له بها والنشاط الجديد لعدد التناسل وغيرها ! . . . فما أبعد الشقة بين هذا المراهق المتطور وبين الطفل الذي خلفه وراءه ! وما أعظم الطفرة التي انتقلت الأمور بها ! وما أعجب ما يتولد عن هذه التغيرات السريعة من إحساسات غريبة مبهمه وقوى محرّكة جديدة !

وهناك وجه آخر للنمو الجسمي في المراهقة وهو عدم التماثل ، أي أن النمو لا يكون متساوياً أو متماثلاً في الأجزاء المختلفة للجسم ، بل تسبق أجزاء منها أجزاء أخرى في نموها ، فإذا بالأنف — مثلاً — بادية الكبر ، والوجه غير متناسق ، والجسم لا يتناسب طولاً وعرضاً . . . ويترتب على عدم التماثل في النمو أن المراهق لا يستطيع شكاكه لفترة طويلة ، كما يترتب عليه اختلال التوافق الحركي ، وفقد المراهق لآوازن الحركة ونعومتها والتحكم فيها ! أضف إلى هذا تمليق بعض السكبار — والصغار — على هذه المظاهر ، مما يزيد في حرج المراهق وتعثره وضيقه ! !

وإلى جانب التغيرات السابقة ، هناك تغيرات أخرى فسيولوجية أقل وضوحاً ولها مع ذلك تأثيرها القاطع على المراهقين — من ذلك التغير في معدل النبض الذي ينخفض بعد البلوغ بمعدل ٨ مرات في الدقيقة ، والتغير في ضغط الدم الذي يرتفع تدريجاً ، والتغير في نسبة استهلاك الجسم للأوكسجين التي تنخفض عما قبل . . . وتتسبب هذه التغيرات في شعور

المراهق في بعض الأحوال بالتعب والتخاذل وعدم القدرة على بذل الجهود البدنية الشاق . ويجهل كثيرون من الكبار السر في هذه الأعراض ، فيرمون المراهق بالكسل والخمول والنية السيئة ! !

الفرقة الأولى في موعد البلوغ :

ليس هذا فحسب ، بل إن بعض الأفراد يبلغون الحلم مبكرين وبعضهم يصلونه متأخرين ، فإذا بفترة زمنية تبلغ خمس سنوات تفصل بين أول المبكرين وآخر المتأخرين !

فكل فرد يتبع في نموه نمطاً يختص به وحده ، وكل فرد يخط — على مدى السنين — منحنى لنموه لا يشاركه فيه أحد غيره ! وإلى هذا ، فإن البلوغ مرتبط باشتداد عمل الغدة النخامية والغدد التناسلية على وجه الخصوص ، وبضمور الغدتين المعروفتين « بغدتي الطفولة » وهما الغدة الصنوبرية والغدة التيموسية . . . والنتيجة أن بعض الأفراد يسبقون آخريين إلى البلوغ ، فيطول بالأولين أمد المراهقة ، ويكونون عادة أوفر نمواً وأضخم أجساماً .

واختلاف المراهقين في موعد البلوغ — بالرغم من أنه أمر طبيعي — يتسبب في بعض الصعوبات الخاصة للذين يتأخر بلوغهم ، حيث يحسون من جراء ذلك القلق والهم ، وحيث يترقبون بصبر فارغ اللاحاق بالسابقين لهم ويصطنعون أحياناً الوسائل التي تظهرهم بمظهر البالغين أو ما يظنون أنه مظهر البالغين !

الفروق الفردية في النمو الجسمي :

وكما يختلف المراهقون في موعد بداية المراهقة ونهايتها وطول مدتها ، فإن بينهم كذلك فروقا فردية واسعة في الأبعاد المختلفة للنمو الجسمي . وليست هذه الفروق الفردية وليدة المراهقة فهي تقوم بين الأطفال قبل ذلك ، ولكن النمو السريع في المراهقة مما يبرز هذه الفروق ويضخمها تضخيمًا ، بل مما يفرض على المراهقين إجراء المقارنة بين جسومهم وأطوالهم وقواهم العضلية .. ويفرض عليهم الاهتمام بما يطرأ على الأبعاد الجسمية من تغيرات . وقد دل البحث الحالي على أن هذا الاهتمام يصل في مجموعات المراهقين حده المفاخرة بالقوة البدنية وإطالة التحدث في موضوعاتها والمكاشفة أحيانًا بأجزاء الجسم المستترة ! . . . ومن الطبيعي أن المقارنة بين الأبعاد الجسمية لا تكون في صالح البعض الذين يحسون لذلك النقص والدونية . ويزيد القلق إذا لم يجد المراهق في مجموعة الأقران أو زملاء الفصل من يقاربه في التكوين الجسمي أو مستوى التضج ، وإذا لم يجد من الكبار من يوجهه نحو تقبل حقيقة الفروق الفردية الواسعة ، ويشير له — في نفس الوقت — إلى الميز في قدراته واستعداداته الخاصة ونواحي المهارة عنده !

ومما له دلالة كبيرة أن ضالة التكوين الجسمي كانت عاملاً أساسياً في سوء

تكيف المراهقة في كثير من حالات البحث الحالي ، بل كادت أيضاً أن تكون وجهاً ثابته في المراهقة المرضية المنحرفة^(١) .

ولعل من المفيد أن نشير في هذا المجال إلى مناجات إليه بمضى المدارس الثانوية في الخارج ، من المقاربة بين تلاميذ الفصل الواحد في النمو الجسمي ، فتجنب المتطرفين في النمو — سواء بالزيادة أو النقص — ستعيب الاختلاف الكبير عن الآخرين وشموهم بالعزلة عنهم . وما يحققه هذا الاتجاه أيضاً ، التقارب في مستوى النضج الوجداني وفي النيول والاهتمامات ، الذي يقترن عادة بالتقارب في النضج الجسمي . . . كذلك أتجهت مدارس أخرى إلى توزيع التلاميذ على أساس الصداقات القائمة بينهم واختيار الزملاء بعضهم لبعض ، مما يتسنى معه إشباع حاجات المراهقين إلى الانتماء والتماطف وتجانسهم في الاهتمامات والنيول ، واشتراكهم في الطرق الدراسية التي تقوم على التعاون والمبادلة كطريقة « المشروعات » .

اعتبارات التطور نحو الرجولة

وليست التغيرات الجسمية هي كل أنواع التغيرات التي تطرأ على النمو في المراهقة ، وإن كانت أكثر هذه التغيرات بروزاً وأقربها إلى ملاحظة المراهق والمحيطين به . . . ففي سائر نواحي النمو العقلي والوجداني والاجتماعي يحدث التغير والتطور ، الذي لا يلتزم بسرعة موحدة في هذه الجوانب

(١) انظر الفصول من الرابع إلى السادس من الكتاب .

المختلفة . وتصل هذه السرعة أقلها في النمو العقلي حيث لا يتميزه وثبات أو طفرة ، وحيث يسير النمو متشداً نحو نهاية النضج ، فيصل هذه النهاية إبان المراهقة بالنسبة لبعض القدرات العقلية ويقترب منها بالنسبة لبعضها الآخر .

ويترتب على تغيرات النمو المختلفة وعلى التطور نحو الرجولة ، نشوء حاجات جديدة للمراهق واشتداد حاجات أخرى قديمة . وفيما يلي عرض سريع لبعض من أهم هذه الحاجات والاعتبارات ، وسنواصل — في الفصول التالية — مناقشة وجوه جانبية لها ، جديرة بالمنايا والتأمل . —

١ — يستتبع الانتقال من الطفولة إلى الرجولة ، انتقالاً من الاعتماد على الغير إلى الاستقلال بالمسئولية الشخصية والاعتماد على الذات . — ولهذا الاستقلال جانبان مترابطان ؛ جانب اجتماعي وآخر وجداني !

فن حين الاستقلال الاجتماعي ، فإن المراهق يتطلع إلى أن يتبوأ مركزاً مسؤولاً في مجتمعه ، وأن يقوم بالوظائف والمهام التي يتطلع بها الراشدون ، وأن يتخاض من طفله الاقتصادي على والديه ويصبح له كيانه واعتباره الاجتماعي الخاص . . . ويتأني كل هذا بطريق طبيعي في المجتمعات البسيطة ، حيث يباشر المراهق المسؤوليات الاجتماعية دون تسويق كثير . أما في المجتمعات المتحضرة ، حيث تمتد طفولة الفرد الاقتصادية والاجتماعية ، فإن المسألة تأخذ شكلاً معقداً ، ويصبح أحد محاور القلق عند المراهقين تأمين المستقبل من حيث العمل أو الدراسة المهنية . . . ومما لاحظناه في البحث

إلى أن النجاح في الدراسة يأتي في مقدمة الموضوعات التي يشغل بها المراهقون المصريون ، وخاصة المراهقون من أبناء المدن . ولعل للأهمية التي تعطى للشهادة الدراسية في التوظيف وللنظام الذي درجنا عليه في قبول الطلبة بالجامعات ، نصيب كبير في هذا الانشغال والقلق ، وفي أن النجاح المدرسي أصبح إحدى القيم الأولى في ثقافة كثير من الأسر المصرية !

وقد أجهت بعض مدارس الغرب إلى تهيئة برامج خاصة لطلبتها ، بقصد تعريفهم بإمكانيات المدن والأشغال المختلفة في البيئة المحيطة وبأنواع الدراسات العليا والجامعية القائمة ومقتضيات كل منها ، حتى يتخفف المراهقون بذلك من قلقهم نحو المستقبل المجهول ! كذلك عمدت بعض المجتمعات المتحضرة إلى تشغيل المراهقين في مسكرات العمل والأعمال الموسمية — مثل جمع المحاصيل الزراعية — ، وشجعت بعضها فرض اشتغال الطلبة أثناء الدراسة ، وهذا كله مما يخفف حدة الشهور بطول فترة الطفولة الاقتصادية ، وتأخر تحمل المسؤولية والمساهمة الفعلية في المجتمع . . . هنا ، وتقوم الجمعيات المدرسية ونوادي الشبيبة وفرق الكشافة وما إليها ، بدور هام في إشباع حاجة المراهقين إلى تبوء المسؤولية والتأثير الاجتماعي والشهور بالأهمية والاعتبار .

أما من حيث الاستقلال الوجداني العاطفي ، فلمه أئزم للمراهق وأشد ارتباطاً عما في الرجولة من الاستقلال الاقتصادي الاجتماعي ولذلك يسمى المراهق عادة إلى التخلص من ربط التعلق الطفلي بأبويه ، ويرغب في التحرر منهما عاطفياً ، وفي تكوين شخصيته المستقلة والبت بنفسه فيما يهمه من

أمور أولاً بد أن يحدث هذا « الفطام » النفسي من الأبوين حتى يمكن للمراهق أن يميز مكانته في مجموعة النظراء ، وأن يحقق الاستقلال الاجتماعي خارج الأسرة .. على أن الفطام لا يتم في يسر لكثير من المراهقين الذين يصب على آباءهم أن يغيروا العاملة التي اعتادوها معهم أطفالاً ، ويشق عليهم الاعتراف بانضمام شخص بالغ جديد إلى الأسرة !

٢ - ويرتبط بالتطور نحو الرجولة ، تزايد اهتمام المراهق بمجموعات الأقران والنظراء . وليس هذا الاهتمام وليد المراهقة ، بل إنه يبدأ في اليوم الذي يلعب الطفل مع غيره من الأطفال ، حيث يحظى مايقوم به الأطفال الآخرون والوسائل التي يتبعونها في التفكير بجانب كبير من اعتباره ... وتزداد حساسية الطفل ، في المدرسة الابتدائية ، لأحكام وتقاليد مجموعة النظراء التي يحاول جاهداً أن يتوحد معها ، وإن ظل مع ذلك مقيماً على ولاء أكبر للأسرة وقيمها ومثلها السلوكية .

أما في المراهقة ، فإن التأثر بمجموعة النظراء والولاء لها يسكاد بطنى على أشكال الولاء الأخرى ، فيصبح لرأى الأقران والأصحاب الاعتبار الأول عند المراهق .. ويرى بعض الآباء والمدرسين في ذلك تهديداً لسلطانهم ويظنون أن المراهق يشق عليهم عصا الطاعة .. وحقبة الأمر أن المراهق يرغب - كما قدمنا - في التحرر المطلق من الأشخاص الذين تعود الاعتماد عليهم طفلاً ، وأن مسلكه ليس إلا مظهراً للنمو الاجتماعي ، والرغبة في توسيع دائرته الاجتماعية بما يتناسب مع اطراده في النمو ، والرغبة في

إجراء التجارب الواقعية على الحياة ، والبحث عن مستويات أعلى للأمن
النفسي لم تعد الأسرة وحدها قادرة على كفالتها . . . ولا ينفي هذا قيام
التمرد على المدرسين أو الآباء في الأحوال التي تستدعيه ، مثلما يحدث
عندما يسيء الكبار معاملة المراهق ، أو عندما يستمرون في معاملته
معاملة الطفل ، أو عندما يسيئون فهم تعلقه بثلته وأصحابه ويمترضون على
هؤلاء الأصدقاء بأساليب تنقصها اللياقة والحكمة ! ! ولعل خير ما يفعله
الآباء في هذا المضمار ، أن يشجعوا المراهق على دعوة أصحابه إلى منزله
ويحسنوا استقبالهم فيه ؛ فالآباء بهذا يعطون المراهق صكاً بالموافقة على ما
هو مجال حيوي في اعتباره ، ويؤثرون كذلك بطريق غير مباشر على
اختياره لأصدقائه . . . ولما كان المراهق يظل أبداً بحاجة إلى الأمن الذي
تكفله له الأسرة — التي يلوذ بها خاصة عند فشل تجاربه ومخاطراته خارجها —
فإن سلوك الآباء الحكيم في هذه الفترة ، تحقيق بأن يوفر على المراهق
الصراع الذي قد ينشأ بين ولاءه لأسرته وولائه لمجموعة النظراء والصحاب!

٣ - ويحمل التطور نحو الرجولة في طياته اهتماماً حيويًا ثالثاً لعله في
مقدمة الاهتمامات في المراهقة ؛ ذلك هو الاهتمام بالجنس الآخر وبال موضوعات
المتعلقة بالوظائف الجنسية وتكوين الأسرة والنجاح في المجالات الاجتماعية
المختلطة . ويمر هذا الاهتمام بأدوار مختلفة لا تنطبق تماماً عند جميع المراهقين ،
كما تختلف مظاهره وآثاره في سلوك المراهقين باختلاف الحضارات ،
والمصطلحات الاجتماعية الخاصة بالعلاقات بين الجنسين ، وإمكانات الزواج

المبكر ، والفرص المتاحة لاشتراك الجنسين في حياة المجتمع .. وتنشأ كثير من الانحرافات في المراهقة عن اشتطاط بعض البيئات في فرض القيود وأنواع التعريم على موضوعات الجنس ، وانعدام التوجيه المناسب ، ونقص الثقافة الجنسية الصحيحة .. إلى جانب الخبرات الخاصة التي يمر بها بعض المراهقين ، والعناصر المدعمة لاتجاه الانحراف في أساليب التربية المنزلية !!

٤ — وبتطور المراهق نحو الرجولة ونمو مقدراته على التجريد العقلي ، يشعر كذلك شعوراً متزايداً بالحاجة إلى فهم نفسه وفهم السكون المحيط به وما يربط بينهما من علاقة .. وهذه الحاجة التي تنشأ منذ الطفولة (بدليل ما يسأله الأطفال من أسئلة حول ظواهر الطبيعة وما وراء الطبيعة !) والتي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات ... هذه الحاجة تقوى وتشتد درجة في المراهقة ، فإذا بالمراهق يسعى في البحث عن القوانين العامة التي تفسر له الظواهر المحيطة به وتلخصها وتربط بينها ، ويحاول أيضاً الاستبصار بما يمر به من خبرات وأحوال متغيرة ، كما يعيد النظر في معتقداته الدينية والاجتماعية والمذهبية يريد أن يصل فيها إلى نتائجها الخاصة ! .. ويتأثر المراهق في هذا اللون الفلسفي ، بالنضوج في كثير من قدراته العقلية — وبخاصة القدرة على التفكير الرمزي والمجرد ، وبالأتجاهات الاستقلالية التي تصاحب الانسلاخ من الطفولة والتقدم نحو الرجولة ، وهي الاتجاهات التي سبقت إليها الإشارة .

ومن المبالغة الزعم باشتراك المراهقين جميعاً بدرجة متساوية في هذه

الإهتمامات العقلية ، على أنه يمكن القول بأن الاتجاهات الفلسفية والفنية
بالمسئولية التي تميز خاصة الناس في المجتمع ، تظهر عادة في هذه الفترة من
فترات الحياة . . ولقد يفرق بعض المراهقين في التأملات الفلسفية والشكوك
الدينية ، فيكون ذلك — في كثير من الأحيان — عرضاً من أعراض
اضطرابهم النفسي ، ومظهراً لخلو حياتهم من الاهتمامات العملية الاجتماعية
ولقصور مجموعاتهم عن الإشباع السليم لحاجاتهم النفسية ! .

تفسير المراهقة

هذه بعض آثار التغيرات التي تطرأ على النمو في المراهقة . . وبالرغم
من اتفاق المراهقين في الشكل العام للتغيرات الجسمية وتغيرات النمو الأخرى
فإن بينهم فروقا فردية واسعة في سائر نواحي النمو ، لها — دون شك —
توابعها في توافقتهم النفسي . كذلك يختلف تأثر المراهقين بتغيرات النمو
باختلاف استجابة مجتمعاتهم لها ، التي تؤثر بالتالي على استجاباتهم أنفسهم !
ويلاحظ أن نظريات المراهقة التي اتجهت إلى تشابه المراهقين
في خصائصهم السلوكية ، إنما بنت على اشتراكهم في حدوث التغيرات
الجسمية واعتبارات التطور نحو الرجولة ، دون النظر إلى اعتبارات البيئة
الاجتماعية التي تخضع على الاعتبارات الأولى دلالتها . وإذا كانت هذه
النظريات قد أدخلت في حسابها أحيانا تأثيرات البيئة الاجتماعية ، فقد
باتجهت إلى اعتبار هذه البيئة موحدة بالنسبة للمراهقين جميعاً ، ونسبت

إليها أحكاماً عامة وتأثيرات متجانسة ، وأهملت ما بها من اختلافات كبيرة وعوامل متغيرة ! . . . وخصيخ أن البيئة الاجتماعية تؤثر في التكيف النفسى على مر الزمن ، إلا أن التأثير في المراهقة ذو أهمية خاصة ، وذلك لتزايد سرعة النمو واتساع رقعة البيئة الاجتماعية كذلك . وعليه ، فإن تأثير المراهق ببيئته وتأثيره فيها — هذا التفاعل المتبادل — له شأن أهم واحتمالات أخطر من ذى قبل ! !

والنظرية المقبولة في المراهقة والتي تتفق مع نتائج الدراسة الحالية ، هي أن المراهمة تتأثر في تكيفها واعتبارات من نوعين ؛ فهناك أولاً اعتبارات النمو الفائق السرعة والتغيرات المختلفة المرتبطة بالتطور نحو الرجولة ، وهناك ثانياً اعتبارات الثقافة المحيطة وثقافة المجموعات التي يدور المراهق في فلكها ، بما يميزها من قيم ومثل وأنواع الضوابط والضغط الاجتماعية . . . وعلى نتائج التفاعل والاحتكاك بين هذين النوعين من الاعتبارات ، أى بين مراهق متطور وبيئته الاجتماعية ، تتوقف سمات المراهمة ومعالجتها في حالة (زيد) من الناس . ويتأثر هذا التفاعل — بطبيعة الحال — بعناصر من خبرات المراهق السابقة وبنائه الجسمى النفسى !